النموذج المعرفي في شعر"حسين زيدان"
"عودة حي بن يقظان" أنموذجا

The epistemological model in the poetry of "Hussein Zaidan" "The return of Hayy Bin Yaqzan" as a model

ط/ هدى ضامن *

د/ شراف شناف♣

تاريخ الإرسال: 2021/01/25	تاريخ القبول: 2021/05/02	تاريخ النشر: 2021/12/20

الملخص:

يسعى الشعر لمكاشفة الوجود، والإجابة عن الأسئلة الملحة الشاغلة للفكر، في محاولة دائبة للتخلص من تغول المادة وتفعيل الجوانب الروحية في الإنسان، وقصة "حي بن يقظان" في جميع تخريجاتها منذ "ابن سينا" مبدعها الأول محاولة للإجابة عن سؤال المعرفة وطريقها، ومنها استلهم الشاعر "حسين زيدان" فكرة قصيدته "عودة حي بن يقظان" التي فيها يتجلى بوضوح تداخل الخطابين الشعري والعرفاني.

تنطلق هذه الدراسة من الإيمان أن الشعر قبل أن يكون بنيات أسلوبية متميزة، وجماليات إيقاعية هو بالأصل رؤية وجودية تترتب وتنتظم داخلها العلاقات بين الله والإنسان والكون، منتجة نموذجا معرفيا يستند إليه الشاعر، وتكون القصيدة شكلا ومضمونا انعكاسا له، وهو ما أغفلته جل الدراسات النقدية زمنا طويلا.

الكلمات المفتاحية: الشعر، حي بن يقظان، العرفان، النموذج المعرفي، الفطرة.

Abstract:

Poetry seeks to uncover existence, and to answer the pressing questions that occupy thought, in a constant attempt to get rid of the intrusion of matter and activate the spiritual aspects in man. The story of

المؤلف المرسل: هدى ضامن houda.damen@univ-batna.dz

***جامعة باتنة 1، مخبر الشعرية houda.damen@univ-batna.dz**

♣جامعة باتنة 1 charafbatna@yahoo.fr

"Hayy Bin Yaqzan" in all its graduations since "Ibn Sina", its first creator, is an attempt to answer the question of knowledge and its path. Poet "Hussein Zeidan" thought the idea of his poem "The Return of Hayy Bin Yaqzan" in which the intersection of the poetic and ceremonial discourses is clearly evident.

This study starts from the belief that poetry before it had distinct stylistic structures and rhythmic aesthetics is basically an existential vision in which relations between God, man and the universe are arranged and organized within it, producing a epistemological model on which the poet relies. The poem is form and content as a reflection of it.

Key words: *Poetry, Hayy Bin Yaqzan, Gnosis, The epistemological model, Instinct.*

*** *** ***

1. مقدمة:

التجربتان الشعرية والعرفانية متواشجتان حد التماهي، لا باعتبار ارتباطهما الوثيق معا بالوعي الداخلي للإنسان ومحاولته الملحة في العيش بعيدا عن الواقع الفيزيقي، الذي تغولت فيه المادة، فأصبحت البشرية تشكو فراغا وجدانيا وخواء روحيا فضيعا، يرتجى في التجربة العرفانية والشعرية تخفيف وطأته، إذ رفع العرفان منذ البدء لواء الإنسان باعتباره أهم مجلى للجلال الإلهي وأثر النفخة الإلهية الأزلية لأن "معرفة الذات الإنسانية هي منطلق معرفة الله، وأن معرفة الإنسان هي أصل معرفة الله في تجلياته اللانهائية والمحيطة"[1]، إن كلا من العرفان والشعر يعتمد على الإلهام والكشف، وكلاهما يبحث في أسرار الكون وخباياه محاولا جـ هذا المجهول وسبر أغواره، كما أنهما يشتركان في إدراك الجمال ومفهومه، فالجمال في التفكير العرفاني تجربة ذوقية وجودية شامخة التعالي، فهي قبل أن تسعى لتلبية حاجات فطرية طبيعية في الإنسان هي تجربة إنسانية تحفل بالجانب الروحي وتحتفي بالنفخة الإلهية في البشر، فتبني التجربة الجمالية على أفقر وحي كوني يتجاوز كل أشكال الانغلاق الذي تفرضه المادية المتغولة أو التدين المتشدد، جمال يعاش ويذاق من خلال مجال إبداعية هي في الوقت ذاته جزء من التجربة العرفانية وتعبير عنها.

أي أن العرفان عند أهله مصطلح يستدعي علاقة متوارية بين المعرفة والمحبة،إنه صرح" يعمل على فتح باب رحب لمعاودة النظر في كل نزوع إنسي يقصي التعالي من اعتباره،

وفي كل نزوع تديني يلغي الإنسان كأولوية كونية منأفقه"[2]، إنهما يسعيان معا لتتبع آثار هذا الجمال الذي كان مصدره أولا وقبل كل شئ صفاء الباطن حتى صار يضطلع به " قلب تجمل بالمعنى الإلهي ليرى بعين القلب، عين الصوفي الثالثة بهاء مطلقا لا نهائيا في الكلمات والأشياء، في الذات والعالم، في المرئي واللامرئي"[3]، فهو جمالي غذي الروحانية التي تسعى اليوم لتحرير الإنسان من المادية الماجنة، كما أن كلاهما تجربة إنسانية تحركها فكرة الخلاص، أما الأول (العرفان) فهو مؤمن أن الخلاص في القرب من الله والإمساك بعروته الوثقى، والنهل من نوره إذا ما تكشفت الحجب، والثاني (الشعر) يائ من الخلاص رغم محاولاته الدائبة فالشاعر يعاني: غريب عن العالم غريب فيه، فاحتمى بالخيال واللغة عله يجد فيهما ما يعينه على تجاوز بعض مما يعانيه لتصبح التجربة الشعرية تجربة عرفانية تسعى للخلاص عن طريق الخيال الخصب ربما هذه أهم الأسباب التي ساعدت على تعالق التجربتين، رغم أنهما كان العرفان يوما منفصلا عن الأدب، إذ بدأ مع الأناشيد الدينية والأساطير القديمة يوم لم يكن الإنسان يعرف غيرها أدبا وعلما. ولأن **"حسين زيدان"** آمن برسالية الشعر واعتبره لب الحياة وجوهرها إذ لم يكن عنده تلك القصائد المبعثرة هنا وهناك، بل عد الشعر رؤيا وجودية يترجمها الشعر ومطولته **"حي بن يقظان"** دليل على ذلك.

جهد شعري معرفي يحتاج إلى قراءة جادة وتحليل عميق، فكان السؤال الجوهري الذي انطلقت منه الدراسة هو: هل استطاع الشاعر **"حسين زيدان"** الانتقال بالقصة من التاريخية إلى الجمالية؟ وما طبيعة النموذج المعرفي الذي تبناه؟ وما هي أهم ركائزه ومسلماته؟ هذا ما حاول المقال الإجابة عنه معتمدا على مقاربة معرفية تأويلية، بغية الكشف عن كيفية توجيه النموذج للوعي الشعري، ودفعه لأنه يسمو بالروح الإنسانية في كليتها، عقلا ونفسا وجسدا.

2. الأبعاد العرفانية في قصة حي بن يقظان:

في قصيدة **"عودة حي بن يقظان"** التي تعد إعادة صياغة فكرية وشعرية للقصة التراثية الشهيرة **"حي بن يقظان"**، التي لاقت رواجا كبيرا خارج إطارها الجغرافي العربي إذ أنها ترجمت للغات كثيرة. وهي بالأصل قصة فلسفية ذات أبعاد صوفية عرفانية، أبدعها **"ابن سينا"** الفيلسوف العظيم الذي التقط فكرتها من الأفكار الفلسفية القديمة للفلاسفة

الإسكندرية وهي قصة يمكن تسميتها بالمصطلح المعرفي المعاصر بالنموذج أو النظام المعرفي القائم على محاولة كشف العلاقات بين العناصر الثلاثة الأساسية في الوجود: الله ـ الإنسان ـ الطبيعة "إذ يشير مفهوم النظام إلى مجموعة من العناصر التي تتكامل فيما بينها لتعطي للنظام هويته، بحيث لا يعود النظام هو المجموع الجبري لهذه العناصر، وإنما تولد ـ هذه العناصر ـ نتيجة تكاملها وتداخلها وتفاعلها، خصائص جديدة (...) والنظام في هذا السياق هو منظومة من الأفكار التي يعطي تكاملها رؤية كلية وفهما شموليا للكون والحياة والإنسان"[4]، الذي ينجر عنه إعادة ترتيب وتنظيم العلاقات بين العناصر الثلاثة السالفة الذكر، وقد أعيدت كتابتها بعده بصياغات مختلفة تحمل كل واحدة اتجاه صاحبها وعقيدته الفكرية فاستلهم منها شيخ الإشراق **"السهروردي"** قصته **"الغربة الغربية"**، ثم أعاد صياغتها ابن طفيل ،ليتسلمها بعده **"ابن النفيس"** ويعيد قراءتها وإنتاجها من جديد بما يتوافق واتجاهه الفكري وسماها **"فاضل بن كامل"**، ويعد هؤلاء الثلاثة أهم من أعاد صياغة القصة، التي تقوم أساسا على إبراز طريقة تحصيل المعرفة أو بمصطلح عرفاني طريقة معرفة الله إذ لي المقصود بالمعرفة تلك الخبرات الفردية التي يكتسبها الإنسان، بل كما يسميها الدكتور **"عبد الوهاب المسيري" "المستوى المعرفي"** هذه العبارة "التي تعني المستوى الذي يتم فيه إدراك الحقيقة الكلية والنهائية الكامنة وراء ظاهرة أو نص ما ،ويتم ذلك من خلال عملية تجريدية تزيح جانبا التفاصيل التي يراها الباحث غير مهمة،وتبقى السمات الأصلية الجوهرية للشئ،والتي تشكل في واقع الأمر إجابة النص أو الظاهرة على الأسئلة الكلية والنهائية"[5]، وذلك في طابع قصصي أخاذ يمرر من خلاله الكاتب عقيدته الفكرية بشكل سل ، معتمدا على نموذج معرفي للإجابة على الأسئلة الإنسانية الملحة فلكل نموذج بعده المعرفي الذي يتكون "من معتقدات وفروض ومسلمات وإجابات عن أسئلة كلية ونهائية تشكل جذوره الكامنة وأساسه العميق وتزوده ببعده الغائي"[6]، أما عن ترجماتها في الغرب فتعتبر قصة **"روبنسون كروزو" لـ "دانييل ديفو"** أهمها إطلاقا، و "مذ ذلك الحين ـكما يقول حسين زيدان ـ غابت أخبار حي بن يقظان عن الأمصار ..إلى أن جاء شاعر مغمور، يدعى حسين زيدان،حدثنا عنه في هذا البيان"[7]، و لعل القارئ الحذق يستفسر عن جدوى إعادة قصة تراثية ذاع صيتها حتى عمت الأمصار وتداولتها الأمم، قصة تقوم أساسا على اعتبار العقل آلية تعجز وحدها عن الوصول إلى المعرفة، في عصر

تغولت فيه التكنولوجيا وتأله العقل؟ إنها أزمة الإنسانية اليوم التي وجدت نفسها تتفوق علميا واقتصاديا وتنهار أخلاقا وقيما ،يخترقها نموذج قائم على المادية النفعية ويضع الحاجة الروحية للإنسان في آخر اهتماماته،أزمة اغتراب يعيشها الآخر المتفوق قبل المسلم المهزوم، فجاءت القصيدة تجربة جمالية عرفانية متناغمة تتسم بنضوج فكري عال.

3. النموذج المعرفي في مطولة "عودة حي بن يقظان "لـ "حسين زيدان":

لا يكتب الشاعر الحق من فراغ، ولا يعتبر القصيدة زخرفة لغوية يستعرض فيها قدرته على تطويع اللغة، بل يؤمن أن للشعر رسالة تتجاوز العصور وتخاطب الأزمنة، لذلك حق لكل شاعر بل وجب عليه أن يتبنى نموذجا معرفيا يلخص رؤياه لله والكون والإنسان، يدافع عنه إما بوعي أو من دون وعي ذلك "إن النموذج المعرفي الإدراكي يحدد مجال الرؤية وأن المقولات التحليلية توجه مسار البحث"8، وقصيدة "عودة حي بن يقظان"حافلة بالإشارات الدالة على النموذج المعرفي الذي يتبناه الشاعر وقد كان ذلك في صيغة جمالية أخاذة، هذا ما حاولت الدراسة تقصيه والبحث فيه في النقاط التالية:

1.3. ظهور حي بن يقظان: (معرفة الذات):

أول ما يبدأ به "حسين زيدان" نصه عنوان مطول لأول مقاطع القصيدة يقول فيه"فجأة ..عاد حي بن يقظان"، و"حي بن يقظان" عنده هو رمز للفطرة الإنسانية السليمة، التي أودعها الله سره حين سواها ونفخ فيها من روحه، فضلت مهتدية بالميثاق الأول الذي عاهدت به ربها يوم خلق البرية في قوله: {وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين}9، إنه الإنسان الذي يشده الحنين إلى نفخة الله الأزلية فيه وهو عماد إصلاح الأرض بعدما انقطع الوحي وبه انقطع الوصال المباشر بين الأرض والسماء بموت خاتم النبيين محمد ﷺ وانتهت بذلك المعجزات واقترن تصحيح عقيدة الإنسان "بالفطرة الفائقة أكثر من حضور المدد العلوي في شكل كرامات ومعجزات .. وكانت وفاة الرسول الأعظم نهاية لهذا الضرب من المدد .. وبداية البحث عن "حي بن يقظان"[10] فقال:

"يئ ⍰ الأنام من الحروب

وما جرى باسم السلام..

فإذا البرية بركة

أسنت بلغو في الكلام..
وإذا أعزة أهلها
بين البرية كاللئام..
وإذا الصراط طرائق
تخشى إذا العود استقام..
.
.
إلا حديثا في الورى
في ذات حشد من زحام..
قالوا:سمعنا عن فتى
في الغابرين...وأي عام..
"حي بن يقظان"يقال
أنه صار الإمام..
ليقود من قد زلزلوا
في الأرض من أدنى مقام .."[11]

وعاد **"حي"** حي الذي انتهت به القصة التراثية بالعودة إلى العزلة في جزيرته بعد أن رأى من البشر إعراضهم عن تعاليم الوحي ومخالفة الفطرة، فقد رافق **"إبسال"**، إذ ينبأ في جزيرته أن القوم بعده تأزمت حالهم وعاثوا في الأرض فسادا فيصف في هذا المقطع كيف أن النموذج المادي سيطر على البشرية وأنهك كاهلها ،فتغولت وتسلطت على رقاب المستضعفين، **"عودة حي"** هي رجوع الإنسانية إلى فطرتها بعد غي إنه رمز لما يسميه الألماني **"Utke Alen"** إنسان عصر ما بعد الحداثة أو عصر الأنوار الجديد الذي سيعلن "انقلابا منهجيا يبتعد عن التأكيد على الفردية، سواء كانت الأنا الشخصية، أو الأنا القومية، أو الأنا الدينية، ويعيد على التأكيد على الـ (نحن) الإنسانية في مستقبل العالم"[12].

يؤكد **"زيدان"** أن الإنسان منذ وفاة الرسول وهو يبحث عن **"حي"**، لقد بحث عنه "في مراحل روحية بسفينة التصوف والزهد .. وبحث عنه الإنسان في مراحل عقلية بسفينة الفلسفة والفكر ...وبحث عنه في مراحل "العاطفة المستثناة "بسفينة الثورة والتمرد (...)

ومن سنة الله في خلقه أن "حي بن يقظان" يأتي بذاته في السفينة الأولى..وقد يكلف إبسالا ليكون ربان السفينة الثانية "[13]، إن عودة **"حي بن يقظان"** الطوعية (ليقود من قد زلزلوا/ في الأرض من أدنى مقام) لدليل واضح وإشارة بينة للنموذج الإدراكي الذي ينطلق منه **"زيدان"**، فحي عاد ليقود الإنسانية بنفسه ويكون إمامها ولا يأتي هكذا إلا في سفينة التصوف والزهد التي يقودها النموذج العرفاني، الذي يرتقي من الإدراك الحسي، إلى الإدراك العقلي من خلال التأمل، ومنه إلى تجربة الكشف العرفاني والتي تمثل أعلى درجات الإدراك الإنساني، فينطلق **"زيدان"** من قاعدة عرفانية تختصر المعرفة عند القوم وهي "أن من عرف نفسه عرف الله" :

"أفلا أقول لكم:
فلتذهبوا للفتح، لكن
فتح أنفسكم أريد..
هو أم معركة الشرف..
فلتذهبوا..
هي أطول الرحلات ،أدناها إلينا..
إن أشقاها علينا ..
حين نصلح ما تلف.."[14]

هكذا قال العارفون منذ أمد ذلك لأن الله كما يقول الغزالي "أنعم على آدم، فأعطاه صورة مختصرة جامعة لأصناف ما في العالم، حتى كأنه كل ما في العالم"[15]، لذلك يرى **"حسين زيدان"** أن أصعب الرحلات هي رحلة تغوص داخل النف البشرية لتعرج للسماء فهي تعد"بحث متواصل عن امكانيات تجاوز حدود الإدراك البشري القاصر،وشكلا من أشكال التطلع البشري إلى تحقيق مفهوم "الكلية" في المعرفة /القدرة/الحضور"[16]، فإذا انصلحت النف ، انتهت كل الأزمات وآبت البشرية إلى ربها وعادت إلى رشدها بعد غي.

2.3. مدارج الوصول إلى المعرفة (الحقيقة) في مطولة "عودة حي بن يقظان":

إن المعرفة في الفكر العرفاني هي بحث حثيث للوصول إلى الحقيقة أو اليقين وهي تمر بمراحل عديدة وهو ما حاولت الدراسة تحريه في المطولة إذ تعد مرحلة الإدراك الحسي أولها وأضعفها وهو ما يسميه أهل الاختصاص.

أ. المرتبة الأولى أو علم اليقين: "هي الموجودات في عالم الخارج أو المادة ،حيث يكون لها تعين محسوس لتلبسها بالمادة.وهذه أضعف مراتب الحقيقة نظرا لشوائب المادة"[17]، تقوم هذه المرحلة على الدليل والاستدلال العقلي، لهذا عجب من حال القوم الذين مازالت مداركهم الحسية مرشدهم الأول للحقيقة:

"عجبا لقوم ما رأوا شمسا تطل على
الروابي مرة، إلا وظنوا أنهم للشم
حقا مبصرون..
عجبا لقوم يحسبون اللون لونا
والسحاب الحر ما أسرته دائرة
العيون..عجبا لمن كانوا،وأعجب
حين يجهل ما يكون.."[18]

عجب **"حي"** لحال قوم مازالوا يظنون أخيلة الأشياء حقيقتها، فالعارف يدرك أن كل الصور خيالات عن الحقيقة، إذ أن كل موجود عن عالم الظواهر "إنما هو مجلى أو مظهر للواحد الحق أي هو صورة جزئية للكل المطلق ولذا لا يقال في أي موجود إنه الحق إطلاقا وإنما يقال إن الحق تجلى فيه في صورة من صوره التي لا تحصى"[19]، وهذا ما جعل **"حي"** يدرك أن بصيرتنا ترى صور الحق أكمل وأصفى من بصائرنا:

"أصفى المشاهد:كل ما حضر الوجود
وما تغيب سوى العيون
والشم لا شم سوى ما قد ترانا
والسحاب الحر ما التحم اعتلاء أو سكون
عجبا لقوم ما وعوا أن الوجود الحق
ليم ما نراه، وإنما ما قد يرانا" [20]

ويستمر **"زيدان"** في التطواف بحي في ملكوت الله، فالعارفون "يرمزون للجمال المطلق بالشم، وللجمال النسبي بأشعتها،حيث يعتبرون الشم هي الذات الكونية، وأشعتها هي الذوات الفردية"[21]، ويتدرج به من مقام لمقام، إن العرفان كنموذج معرفي آمن به **" حسين زيدان"** ورآه أقرب نموذج للمعرفة الشعرية لا يرفض العقل كآلية معرفية تقوم عليها

العديد من النماذج، لكنه يراه قاصرا عن بلوغ مراحل متقدمة من المعرفة اللدنية، ففي هذه المعارف كما يشير **"ابسال"** يصبح العقل مهد المعرفة وأولى خطواتها فقط (وبمهده صاح، اعترفت بدهشتي) إذ كلما اقترب العارف من الجمال الإلهي المطلق يبطئ العقل المسير وينطلق القلب والذوق العرفاني مهرولا تجذبه أنوار الله إليها، إنه نموذج لا ينفي العقل ولا يناقضه، إنما يتجاوزه، فالروح تتشوق للقرب من الله والتعرض لنفاحاته (إني أعترف بما أعاني،باحتراقي ..باشتياقي..)، حينها يعلم "حي""إبسال" بأنه لم يبلغ بعد النضج المنشود ،وأنه لما يزل أسير عقله وعبد تخميناته"[22] ويخبره قائلا:

"إبسال قد غيرت جسرا ،ربما ..
أو قد عرفت الإنكسار ..
والحق حق أن أقول:
لم تدر بعد،مقامنا..أحوالنا..
يا سالكا هذا الحصار..
مازلت عبدا فانفجر
إن كنت تهوى الإنفجار.."[23]

ما يعيشه **"حي"** لن يتأتى لإبسال إلا إذا غير الجسر الواصل بينه وبين الله (إبسال قد غيرت جسرا، ربما ..أو قد عرفت الإنكسار ..)، إذ أن "معرفة الذات باب معرفة الله، وكل مشروع غايته عالم الألوهية فلابد أن ينطلق من الذات الإنسانية"[24]، وليؤكد **"زيدان"** قصور المعرفة الحسية عن بلوغ الحقيقة (يا سالكا هذا الحصار/مازلت عبدا فانفجر)، وأن الافتتان بالنموذج المعرفي المادي الذي تقوم عليه المنظومة الفكرية الغربية أشار إلى **"روبنسون كروزو"**، نظير حي بن يقظان في الثقافة الغربية لكن لكل منهما توجهه الفكري الخاص إذ حين " يعتزل الإنسان وحيدا، ينتابه شعور بالفراغ الكوني ،لكن طريقته في ملء هذا الفراغ الكوني هي التي تحدد طرز ثقافته وحضارته"[25]، وهو رمز للعقل المادي الذي طغى على إنسان هذا العصر فصار يعاني خواء روحيا قاتلا " وقد تأزم حال القوم بتيه مرعب بعدما ظهر قرين سوء لحي بن يقظان في بلاد الإفرنج يدعى "روبنسون كروزو" كان مطيعا لشهريار سليل ألف ليلة وليلة أكثر من طاعته للسيمرغ سليل منطق الطير "[26] ،وفي هذا المقام أراد زيدان وهو المتشبع بثقافة **"مالك بن نبي"** مقارنة بين البطلين فقال:

"وأراد روبنسن جدالا ،قيل حي
مناظرة:
ـ الله عندكم غموض ،ليـ يعنيكم لذات
هو عندكم وهم نراه..صفاته لا كالصفات
فكأنكم تخشون ربا ،إذ رغبتم في
الحياة ..
حي تبسم، ثم قال:
ـ لقد نطقت،فيا لحبك ،كم يشوقني
إلى كهف الجزيرة حين أرمقها جبالا ..
قد حسبت الله جسما تدعيه
وكأنه أقصوصة لا بد أن تجد المآلا ..
وإذا طلبت الشئ شاء خيالكم
والله شيء حينها ..أو ربما صار المحالا..
الله أخفى بالجمال جلاله
والله أبدى بالجمال جلالا.."[27]

إن كانت المادية العلمانية التي يرمز إليها **"روبنسون كروزو"** تضيق حيز الحياة "قاصرة الوجود الإنساني على العالم المرئي المغيب،فإن الديانة تقوم بالوصل بينهما، مراعية امتداد الوجود الإنساني إلى العالم الغيبي"[28]، لهذا كان رد **"حي"** على اختصاره شديد البلاغة (الله أخفى بالجمال جلاله،والله أبدى بالجمال جلالا)، فالله عند العارف يتجلى في كل المخلوقات فتدركه البصيرة فيما تبدى لها من جمال وجلال، إجابة تمثل نمطا فكريا يرتكز على الفكرة لا على الشئ و"تلكم هي الحضارة في أحايينها وتقلباتها: تكون في الأوج حضارة ترتكز فيها الأشياء حول فكرة حينا ،وحينا تبلغ الأوج حضارة أخرى ترتكز فيها الأفكار حول شئ"[29]، وهما النمطان اللذان يمثلهما كل من **"حي بن يقظان"** و**"روبنسون كروزو"**.

ب. المرتبة الثانية أو عين اليقين: في هذه المرحلة يترقى الإنسان من الإدراك الحسي القائم على العقل إلى البحث عن الحقيقة بتطهير الروح والمداومة على المجاهدات

والرياضات الروحية "وهو ماكان بحكم البيان كما في علوم الأنبياء بالوحي ،وعلوم الأولياء بالإلهام"[30]. ومن ذلك ما كان يشير إليه حسين زيدان حين استغاث بطفل المعاني قائلا:

"حيا على طفل المعاني
ولتقل ما للعباد؟
حيا على طفل المعاني
حيا على طهر بمريم
أو بزمزم و الشراب .."[31]

فالطفل هو رمز الطهارة والنقاء، والرحلة العرفانية هي سير حثيث نحو عالم الطهر والصفاء الأمر الذي جعل **"عبد القادر الجيلاني"** يطلق عليه اسم طفل المعاني وذلك الطفل من المعنويات القدسية، "والمراد من الروح القدسي الإنسان الحقيقي الذي أودع في لب القلب ويظهر وجوده بالتوبة والتلقين،وملازمة كلمة لا اله إلا الله بلسانه أولا، وبعده بحياة القلب وبعد حياة القلب يحصل بجنان اللسان ، وتسمية المتصوفة طفل المعاني لأنه من المعنويات القدسية"[32]، إن هذا الطفل هو الإنسان المرجو الذي يبحث عنه **"زيدان"** والذي سماه بذي الفطرة الفائقة وهو المرموز له **"بحي بن يقظان"**، والبحث عن" لطائف طفل المعاني "محاولة لاستدعائه، إذ يدعوهم **"حي"** إلى البحث بين ثنايا نفوسهم عن طفل المعاني الرامز للطهر والنقاء، عن هذا الجزء المقدس فيهم الذي لازالت لم تدنسه آثام البشر وما تقترفه اليدان ،. لتحصل لهم المعرفة الحقة بالله وتنكشف عنهم الحجب وتنزاح الهموم لذلك يقول **"زيدان"**:

"إذ قلتم.. ما قلتم
والليل فيكم سيد
والعقل من واد لواد..
لم تؤمنوا ـ يا ويحكم ـ بالبعث
والإنسان..
ذي فطرة فاقت
ذرى عقل مع الوجدان..
لم تدركوا أنفاس روح الروح والريحان..

أنتم قتلتم بالحجاب وصينا
طفل المعاني.."[33]

فهو يرى أن هذا الإنسان صاحب الفطرة الفائقة لا يتحرر إلا إذا أطلق هذا الطفل المسجون خلف حجب النف وظلماتها فيعرف الإنسان كنه الوجود ويدرك قدر الله، كما تحدث عن **"السيمرغ"** هو أحد الطيور الخرافية التي كثر ذكرها في الأساطير الآرية التاريخية، لكن أول من استعمله أدبيا هو فريد الدين العطار: إذ في منطق الطير تجتمع الطيور باحثة عن ملك لها يدعى **"السيمرغ"** يعتلي جبل قاف ، فيتزعم الهدهد الحكيم قيادة الرحلة الملأى بالمشقات والصعاب قائلا: "أيتها الطير ،إنني بلا أدنى ريب مريد الحضرة ورسول الغيب، جئت مزودا من الحضرة بالمعرفة، جئت وقد فطرت أن أكون صاحب أسرار"[34]، ويدبر جل الطيور مخافة المشقة وما يقبل على الرحلة غير ثلاثين طائرا بحثا عن **"السيمرغ"**، وفي استدعائه إشارة للتجربة العرفانية ونموذجها المعرفي الذي يمثل فيه هذا الطائر الجمال الإلهي المطلق والحقيقة التامة التي لا يشوبها زيف، وقد وفق الشاعر حين استعمل مصطلح "الرؤيا" التي تتجاوز الإدراك الحسي بالبصر إلى تفعيل آلية أعلى مرتبة وهي البصيرة النافذة للأعماق والبواطن فيقول :

"الطير تحمله إلى أعلى التخوم
وبين عاليها وأسفلها ربيع كالشتاء ..
في{ منطق الطير} استراح إلى البهاء ..
هي سدرة للمنتهى.
أدناه سيمرغ الطيور" [35]

في قول زيدان إشارة إلى الرحلة العرفانية التي يعيشها طمعا في القرب من ملكوت الله وتجلي أنوار المعرفة اللدنية له،إذ تنتهي رحلة الطيور عند العطار بتجلي" السيمرغ" ، ولعلها اللحظة التي تمثل في العرفان لحظة الفناء والتجلي وهي "الحال التي تتوارى فيها آثار الإرادة الشخصية والشعور بالذات وكل ما سوى الحق ،فيصبح الصوفي وهو لا يرى في الوجود غير الحق "[36]، لذلك يقول **"زيدان"** على لسان **"حي"**:

"وإذا بصوت ليد يدري النبر أو من
أين جاء:...

الأمر أوضح من وضوح الشم في
كبد السماء..
ستظل منسحبا تفتش عن ينابيع
الضياء..
لكن كوكبك المنير أسير فكر اللانتماء..
فعدوك العاتي أنت ، وداخل اللغز
الخفاء..
فاخلع نعال الخوف عنك،وسر إلى ما
لانتهاء..
إن لم تذق عسرا فقل:
لا سير يأتي ،لا صفاء.."[37]

لما تجلت **"لحي"** الأنوار خاطبه صوت ليـ يدري كنهه مخبرا إياه أن أعتى الأعداء نفـ بين جنبيه تحمله على طلب الشهوات، وتخوفه من رحلة السير في الطريق إلى الله، لكن شوق**"حي"** يقوده إلى القرب من الله والتعرض لنفحاته:

"رباه ما أحلى العروج إليك
ربي لو أطيق الصبر جئت على أحر..
فإليك قدني يا إلهي ..
إن لي زادا قليلا
مرمري الحلم ،أحيا ظامئا،
أهفو لماء ـ ليـ بعد روائه ـ مر لمر.."[38]

إنه الشوق للحبيب الذي يهون ما سيلقاه "حي" من مشقات وصعوبات تنهك قواه .

ج.المرتبة الثالثة أو حق اليقين: وفيها تتكامل آليات المعرفة فتعرف بقولهم "هو ماكان بنعت العيان، كما يحصل للأنبياء الأولياء الكمل الذي جمعوا بين الاستدلال والبرهان والكشف والشهود"[39]، فقد اتضحت الرؤيا لحي إذ تجلت له أنوار الله بعد رحلة عرفانية شاقة كان مبتغاها تطهير النفـ لترى بنور الله وبذلك يتسلم **"حي"**رسالة قيادة القوم إلى

بر النجاة، بكل أطيافهم وهنا تظهر نزعة العرفاني المؤمن بالانسان أيا كان دينه وتوجهه، وهو تأكيد "على ضرورة الانتقال من إنسان الهوية إلى إنسان الكونية العرفانية"[40]:

"والآن دورك أن تقود إلى الجزيرة
فتية قد آمنوا
وتقود يا حي إليها كل من نبذ الخليل
وقوم نوح: بين من سخروا به
أو سامري مبهر بالعجل والمستورد..
وعليك أن تعفو يوم الزينة الكبرى
على سجان يوسف
والذي التم الرق ..
وتقول يوم الفتح:يا من قاتلوني:أنتم الطلقاء
وتقود من صفعك وتقود من عقروا وأكلوا الربا ..
وتقول يا هابيل "لا لن أقتلك"..
وتقود من يرمي البتول بافكه
وتقود من ظلمك.."[41]

لقد تسلم حي الرسالة و بدأ رحلته نحو إنقاذ القوم من التيه الذي يعيشونه، متقبلا كل الاختلافات بينهم يؤمن أن الإنسان له الحق في اختيار دينه وعقيدته وفكره وما عليه إلا التبليغ بعد الوصول إلى بر الأمان:

"ساروا إلى قلب الجزيرة فرحة
أو وصلة الشادي ..
من كان يحملهم؟
وأين هو الحادي؟
.يا حي ؟..
صاحوا:
.أين حي ؟..
.لا أحد..

وصلوا ،وفي أذهانهم حلم غريب :

. أتراه أرسل بيننا؟..

. أم أنه فينا ولد؟.."[42]

بعد أن نجا القوم من المآزق التي كانوا يواجهونها ،إذ صفت نفوسهم بعد أن تابوا إلى الله فأبدلهم" الله بالحزن فرحا، وبالذل عزا، وبالظلمة نورا، وبالحجاب كشفا"[43] ، فراحوا يتساءلون عن كنه حي بن يقظان هل كان حي نبيا مرسلا ؟أم أنه واحد منهم، هذا ما سيجيب عنه زيدان في آخر مقطع فتتكشف حقيقة "حي بن يقظان " .

3.3. حقيقة"حي بن يقظان:"

بعد أن اتضحت الرؤيا بين زيدان حقيقة حي فقال: "أنه هو نفسه روح بن قرآن ،والمعروف أيضا بعقل بن قرآن "[44]، إن حيا الذي كان يبغيه "زيدان" هو المسلم الذي رباه القرآن وهذبه وزكى نفسه فصفت روحه وطهر قلبه ، وإن في ابتداء زيدان تسميته بروح بن قرآن وأسبقية الروح على العقل إشارة إلى النموذج العرفاني، ذلك أن الروح عند العارف "هي التي قام بها البدن،واستحق بها اسم الحياة،وبالروح ثبت العقل، وبالروح قامت الحجة، ولو لم يكن الروح كان العقل معطلا ، ولا حجة عليه ولا له"[45]، والارتقاء في الطريق الروحي يجد ضالته في قلب المؤمن الذي انفتحت أقفاله، فيبدأ المقطع بقوله:

"قالوا :عصى حي أباه..

حي: بن من ؟؟.."[46]

يبين **"زيدان"** في هذا المقطع بذكاء شديد أن المعرفة التي نالها حي ليست وليدة العقل فقط على الرغم من إيمانه العميق بدور العقل الفعال في تحصيل المعرفة لكن العقل وحده غير قادر على الوصول إلى المعرفة الحقة بالله على الرغم من كونهالطريق إلى الوعي لكن زيدان يخبرنا أن حيا لم يمتثل كليا لصرامة أوامر العقل (عصى حي أباه)، إذ أن تدرج العارف في سيره إلى المطلق " يبدأ فيه الإنسان برفقة العقل،فإذا قطع المرء أشواطا نحو ربه ،فالمدار يكون على القلب لا على العقل ..لذلك ربط زيدان العقل والروح بالقرآن فسماه عقل بن قرآن وروح بن قرآن، إذ لا يؤمن على من قطع صلته بالوحي القرآني من الزلل والضلال ثم يزيدنا تعريفا له لنتمكن من رسم ملامحه فيقول:

"حي بن يقظان ترى

أم حكمة العرفان قامت
في الجزيرة ..رحلة؟.."[47]

يبدو أن **"حي بن يقظان"** هو رمز لتلك الرحلة العرفانية التي قام بها **"زيدان"** في طريقه إلى الملكوت الأعلى في محاولة للقرب من الحضرة الإلهية وكسب علم لدني ،إنها رحلة روحية غاص خلالها الشاعر في ذاته فعرف قدر الله وأدرك نسبه الرباني فتدرج صاعدا يتكامل حسه وعقله وروحه يحدوه الحنين لأصله مهتديا بالقرآن المسطور والمنظور،هذا هو النموذج المعرفي الذي رآه زيدان موصلا للمعرفة الحقة أو اليقين إذ تتآزر كل ملكات الإنسان (حـ وعقل وروح)، متمسكة بالمصدر المتعالي المبعد من النماذج المعرفية المادية المتمثل في الوحي القرآني فقال:

"عصت الجموح، وكلت الأكناه ..
حي..وهذا الحي من يقظان..
وأمام سيمرغ الهدى
هو مسلم قرآني .."[48].

4.خاتمة:

أخيرا نستخلص مما سبق النتائج التالية:

أ. **"عودة حي بن يقظان "** هي إعادة صياغة لقصة **"حي بن يقظان"** وربما كان **"حسين زيدان"** أول من فعل هذا شعرا، لا ليعيد سرد أحداث القصة كما جاءت في التراث وعبر تخريجاتها الكثيرة، بل ليحملها عقيدة فكرية ومنهجا حياتيا يؤمن أن النموذج المعرفي العرفاني الذي لا يعارض النموذج المعرفي البرهاني القائم على العقل، ولا ينكر الكشف كآلية للوصول إلى الحقيقة، ولا يبعد المصدر المتعالي الذي يمثله القرآن.

ب. راهن **"حسين زيدان"** على ثقافة قارئه ،إنه شاعر موسوعي يكتب لقارئ كذلك، يعتمد على اللغة الرامزة الإيحائية ،ليشحذ همته للبحث عن المعنى وإعادة إنتاج الدلالة ،فكان نصا ثريا يحتمل قراءات متعددة.

ت. في مطولته هاته لم يكن زيدان يهدف إلى إبراز كيفية ترقي الإنسان من الإدراك الحسي إلى التأمل العقلي وصولا للكشف العرفاني فقط بقدر ما كان يحاول لفت انتباه القارئ إلى أن الإنسانية رغم إعراضها عن الهدي القرآني هي لا محالة متجهة إلى العمل بالنموذج المعرفي الإسلامي الذي يضيف إلى المنظومات الفكرية المعتمدة على المدركات الحسية والعقلية المصدر المتعالي المبعد منها.

ث. حمل **"زيدان"** مطولته هذه عقيدته الفكرية فهو كما يبدو يتبنى النموذج المعرفي العرفاني الإسلامي الذي لا يقصي الإدراك الحسي، ولاينكر فضل العقل في الوصول إلى المعرفة، كما لا يؤلهه ويبعده عن المقدس ومتعلقاته، ولا ينفي الكشف و الإلهام، بل تتكامل كل هذه الآليات بحثا عن اليقين والمعرفة الحقة. وما **"حي بن يقظان "** أو **" روح بن قرآن"** أو **"عقل بن قرآن"** إنه **المسلم القرآني** الذي جعل الحـ ⍰ والعقل والروح ظهيرا للوحي فكان نهجا للحياة ودليلا للسير فيها والوصول بكلام الله إلى حضرته التي بها تتكشف الحجب وينال العبد رضا وعلما وحكمة.

5. الهوامش:

1رشيد سعدي، الدين بين الحقيقة الحصرية والعرفان الصوفي ،أوهام الهوية الدينية ،إفريقيا الشرق، دط،المغرب،2011،ص23.

2محمد التهامي الحراق، في الجمالية العرفانية مطلات على أفق انسير وحيفي الاسلام، مؤمنون بلاحدود، الرباط، أغسطس 2016، ص3 ،www.mominon.com

3محمد التهامي الحراق، في الجمالية العرفانية، ص5.

4فتحي حسن ملكاوي، نحو نظام معرفي إسلامي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، دط، مكتب الأردن ،عمان، 2000، ص30/29.

5فتحي حسن ملكاوي، نحو نظام معرفي إسلامي، ص44.

6 عبد الوهاب محمد المسيري، العالم من منظورغربي، دار الهلال، دط، مصر، 2001، ص21.

7 م ن ،ص 35.

8 عبد الوهاب المسيري، العالم من منظورغربي، ص42.

9 سورة الأعراف، 172.

10حسين زيدان،شاهد الثلث الأخير، إتحاد الكتاب الجزائريين، ط1، دار هومة، الجزائر، 2002، ص 33.

11 الديوان، ص 38.

12فتحي حسن ملكاوي،مفاهيم التكامل المعرفي، التكامل المعرفي و أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية تحرير رائد عكاشة، ط1، المعهد العالمي للفكر الإسلامي ،2012، ص24.

13 الديوان، ص33 /34.

14 الديوان، ص41/40/39.

15 أبو حامد الغزالي ،مشكاة الأنوار، تح وتقديم أبو العلا عفيفي، الدار القومية،دط، مصر، 1964،ص71.

16 عبد الرحيم علمي،أدب الرحلة الصوفية في الغرب الإسلامي، دعوة الحق مجلة،المغرب، العدد 350، مارس 2000. الرابط: www habous gov ma

17 علي جابر، نظرية المعرفة عند الفلاسفة المسلمين، دار الهادي، ط1، بيروت، 2004، ص102.

18 الديوان،ص43.

19 أسماء خوالدية،الرمز الصوفي بين الإغراب بداهة والإغراب قصدا ،دار الأمان، ط1، المغرب، 2014، ص55.

20 الديوان،ص44.

21 أحمد بلحاج آية وارهام،الرؤية الصوفية للجمال منطلقاتها الكونية و أبعادها الوجودية، دار الأمان، ط1، الرباط، 2014، ص 235.

22 الديوان،ص 48.

23 الديوان،ص49.

24 سعيد الشبلي ،الإنسان بين القرآن والعرفان،مكتبة حسن العصرية، ط1 ، بيروت، 2010، ص145.

25مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، تر:بسام بركة، أحمد شعبو ، دار الفكر ، ط1، سورية، 1988، ص 17.

26 الديوان،ص 35.

27 الديوان ص54.

28 طه عبد الرحمن، روح الدين من ضيق العلمانية إلى سعة الإئتمانية، المركز الثقافي المغربي، ط3، 2013، ص447.

29 مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، ص 19.

30علي جابر ، نظرية المعرفة عند الفلاسفة المسلمين، ص102.

31 الديوان ،ص57.

32 عبد القادر بن موسى الجيلاني، سر الأسرار ومظهر الأنوار فيما يحتاج إليه الأبرار، تح: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، ط2، لبنان ، 2007، ص11/10.

33 الديوان،ص58.

34 فريد الدين العطار النيسلبوري، منطق الطير، دراسة وترجمة: بديع محمد جمعة، دار الأندلس، دط، بيروت، 2002، ص 184.

35 الديوان ،ص 59.

36 أبو العلاء عفيفي،التصوف الثورة الروحية في الإسلام، دار الشعب،دط، بيروت، سنة؟، ص 167.

37 الديوان،ص 60/59.

38 الديوان،ص 62.

39 علي جابر، نظرية المعرفة عند الفلاسفة المسلمين، ص102.

40 رشدي سعدي، الدين بين الحقيقة الحصرية والعرفان الصوفي، ص 28.

41 الديوان،ص67/66.

42 الديوان،ص73.

43 أحمد بن عطاء الله السكندري، التحفة في التصوف المسمى تاج العروس الحاوي لتهذيب النفوس، دار ابن القيم،ط1، دمشق، 1999، ص 3.

44 الديوان،ص73.

45 أبو بكر بناني، الفتوحات القدسية في شرح قصيدة في حال السلوك عند الصوفية المسماة "القصيدة النقشبندية"، تح: عبد الرحمن الحداوي، اسماعيل بن عبد الرحمن المساوي، كتاب ناشرون، ط1، ،لبنان، 2010، ص 9.

46 الديوان 73.

47 الديوان،ص74.

48 الديوان،ص 74.

❊❊❊ ❊❊❊ ❊❊❊